الدليل الثالث

توجيه القرآن وعتابه للرسول

إن الذي يتلو آيات القرآن يجد فيه صورتين صورة الإنسان الضعيف بين يدي الله الخالق العظيم . . . صورة الضعيف الذي يستمد العون من القوي العظيم . . ويستهديه ويستغفره ، ويصدع بما يأمره به ، وأحياناً يتلقى العتاب الشديد ، والتهديد ، والتقريع ، مما يجعل الإنسان يجد في أعماق نفسه ما يقنعه بالفرق الذي لا يتناهى بين صفة الخالق وصفة المخلوق . وبين أسلوب الخالق وأسلوب المأمور . . إنها صورة محمد رسول الله هي صورة العبد المطيع الذي يخاف عذاب ربه إذا عصاه . فيلتزم حدوده ويرجو رحمته ، ويُقِرُّ بعجزه المطلق أمامه . وعدم القدرة على التبديل والتغيير في حرف من كتابه المنزل عليه ؟

﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله . قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن

أتبع إلا ما يوحى إِلي إِني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ [يونس :] .

نجد في هذه الآية الصفة الحقيقية للعبد العاجز عن تغيير ما ينادي به وما عليه في هذا إلا البلاغ المبين . . . وإن كلمة قل في القرآن وتكرارها أكثر من ثلاثمائة مرة تدل على أن المخاطَب منفصل عن المخاطِب ، ولتظهر فكرة الإيمان والتعليم والتوجيه .

﴿ وما ينطق عن الهوى إِن هو إِلا وحي يوحى ﴾ [النجم :] .

ومع ذلك فإننا نرى الفارق كبيراً بين الصورة المبينة لمحمد رسول الله وحقيقة الأمر فهذا العتاب الخفيف الذي يشوبه عفو الله عن رسوله وهو خطابه له في شأن من أذن لهم بالقعود عن القتال في غزوة تبوك :

﴿ عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾ [التوبة : ٤٣] .

الواضح أن العفو لا يتم إِلا بعد الذنب ، وكذلك الغفران لا يتم إِلا بعد الخطيئة وهنا نلمح الصورة الواضحة للضعف المحمدي في هذه الآية :

﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح : ١ ـ ٢] .

وفي آيات أخرى نقرأ الوعيد الصارخ . . وهل يعقل من إنسان يكتب بيده تقريعاً لنفسه . .

﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ [الحاقة : ٤٤] .

فما هذا التهديد . . وما هذا الوعيد . . إلا صادر من قوة أعلى . . موجهة قادرة . . عظيمة . .

والمتابع لسيرة رسول الله يجد أنه يعمل عملاً حسب ما يراه مناسباً وإذ بالقرآن يخالفه على فعله ، ويعنفه ، ويعاتبه بشكل قاس ، وينقده نقداً مراً . . حتى في أقل الأشياء أثراً وخطراً ومن هذا ما نلمحه في قوله تعالى :

﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك ﴾ [التحريم : ٦٦] .

وفي قوله :

﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ [الأحزاب : ٣٧] .

وفي العتاب الشديد بسبب استغفاره لوالده :

﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ [التوبة : ١١٣] .

وفي قوله :

﴿ ولا تكن للخائنين خصيماً واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ [النساء : ١٠٥] .

وهل سمعنا في آباءنا الأولين من يصم نفسه بالعمل مع الخائنين . . فلو كان القرآن من عند محمد لما وجدنا فيه هذا العتاب والتقريع والتوجيه القاسي والنقد المستمر لكل عمل يعمله مخالفاً فيه الأصول العامة للشريعة ومن ثم فلنصغ إلى هذا النوع القاسي من التقريع الشديد ، والنقد العميق للسلوك النفسي . .

﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ [الأنفال : ٦٧] .

ومناسبة هذه الآية أن الرسول ﷺ استشار أصحابه في أسرى بدر ، فجاء الجواب متعدداً فأبو بكر قال يا رسول الله الفداء ، وفي المال الذي سيصلنا منهم قوة للمسلمين ولعلهم يسلمون بعد هذه المعاملة الطيبة . . التي عومل بها الأسرى . . وقال عمر : يا رسول الله إنهم رؤوس الكفر . وصناديد قريش فليضرب كل منا أخاه أو قريبه ، ونكون قد انتهينا من أشدهم قسوة على الإسلام والمسلمين ويقول الرسول تحليلاً لجوابهما : إن الله ليلين قلوباً فهي كالماء وإن الله ليقسي قلوباً فهي كالحجارة ، ويمضي على رأي

أبي بكر ومن ثم تنزل الآيات مخالفة لرأي أبي بكر . وعمل رسول الله . ويرضى الفداء من الأسرى ، ثم يخالف عمله بهذه الآيات ـ ولو كانت من عنده ـ ثم كيف تجادل عمراً في رأيه ويتهمه بالقسوة ثم يعدل إلى هذا الرأي دون سبب . . . أما تشاهد تناقضاً ملحوظاً لو كانت الآيات في القرآن من عمله وأسلوبه ونسج خياله . . . أما تلمح فكراً مضطرباً قلقاً متخبطاً يجعل من نفسه مهزلة لأصحابه ولكن الأمر ليس أمره وما هو إلا رسول يوجه إن أخطأ ويرشد إن حاد عن النهج الإلهي وهذه الآية وفيها العفو عن هذا الخطأ المرتكب . وقال الرسول « لو نزل العذاب لما نجا منا إلا عمر » ولكن العفو من الله . . . فليعتبر من كان في عقله ذرة فكر وليجب عن هذه الحقيقة الأبدية .

ولا بأس أن نتابع الآيات التي فيها التوجيه والتشريع . . . وهذا تقريع عنيف بعد عمل قام به رسول الله بحسن النية ، والرغبة في هداية عظماء قريش . ظاناً أن في هدايتهم هداية للعرب وهذه الحادثة تبين لك يا أخي القارئ مقدار عمق الفكرة التي يوجه إليها الرسول وكان قد غفل عنها أثناء اضطراب حبل الدعوة ، وهكذا اشتدت الأزمة بينه وبين قريش ، حتى دعوه لاجتماع معهم . . . . وأثناء اجتماعه في ـ نادي قريش ـ على الرغم من خطورة هذا الاجتماع وما يؤول إليه من نجاح أو إخفاق ـ يدنو منه رجل أعمى . . . ويتكلم مع الرسول يريد الإسلام . . ولكن الرسول

يسترسل في حديثه معهم ، آملاً في هدايتهم ، وقد أيقن أن في هدايتهم هداية لقريش ومن ثم للعرب جميعاً ، ثم يدنو ويتلفظ هذا الأعمى بألفاظ لا تسمع . . . فما كان من رسول الله وهو منهمك في حديثه مشغول في بحثه إلا الإعراض والصد وقد عبس في وجهه لعله ينصرف ويشعر عظماء قريش أنه ليس مشغولاً عنهم وأنهم يهمونه ، وهذا الرجل هو عبد الله بن أم مكتوم ولا بأس أن تقرأ هذه الحادثة كما جاءت في تفسير المنار : (عندما جاء عبد الله بن أم مكتوم إلى رسول الله وهو يدعو أكابر رجال قريش إلى الإسلام وقد لاح له بارقة رجاء في إيمانهم ويتحدثون معه وقد علم أن إقباله على غيرهم ينفرهم ، ويقطع عليه طريق دعوتهم ، وكان يرجو بإيمانهم انتشار الإسلام في جميع العرب ، فتولى عنه ، وتلهى بهذه الفكرة ، ولم يكن يعلم قبل إعلام الله تعالى له : أن سنته في البشر أن يكون أول من يتبع الأنبياء والمصلحين فقراء الأمم ، وأوساطها ، دون أكابر مجرميها المترفين ورؤسائها) ففي هذه المشكلة أنزل الله بعض الآيات من سورة عبس : بحقه :

﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى ، أو يذَّكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ، كلا إنها تذكرة . . . ﴾ [سورة عَبَس : ١ ـ ١١] .

فهل ترى أشد من هذا التقريع ، ولو كان الكلام من بنات أفكاره لما سار القلم على هذا المنوال ولما مضى القلم بهذا التقريع ، وأي عاقل يرضى أن يسجل لنفسه تقريعاً يبقى مستمراً مع بقاء كتابه . . . يا للعجب . . . يا للخزي . . . يا للعار . . . كيف يرضى العقلاء أن يقبلوا بهذا . . . ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ، إذن لأذقناك ضعف الحياة ، وضعف الممات ، ثم لا تجد علينا نصيراً . . . ﴾ .

محمد يقرع نفسه . . . لا يقبله إلا صغار العقول . . . والمأفونون من الناس ، ومما جاء أن رسول الله عندما أنزلت هذه الآية أي عبس وتولى . . . بكى حتى إنه لم ير أمامه ، وصار يتلمس الجدران كي يصل إلى داره من شدة حزنه ، ولا جرم أننا عندما نصغي إلى هذه الآيات المرشدة المؤدبة المعاتبة ، المنذرة ، يبدو لنا رسول الله ﷺ مخلوقاً ضعيفاً بين يدي ربه ، ذي القدرة القاهرة ، والقوة الكبرى ، والإرادة التي لا يعقب لها ، ثم لا مانع أن نتابع هذه الصور المتعددة ، التي توضح لنا الفرق بين الذات الإلهية وشخصية الرسل . . . ولنقرأ هذه الآية التي هي أشد إنذاراً وتهديداً من سابقتها : في قوله تعالى :

فهذه الآية في حقيقتها هي قمة التهديد والوعيد ، ولا تبقي لعاقل مبهماً من القول ، أو شروداً في الذهن ، وقد وضحت بلا

غموض البعد السحيق بين الذات الإلهية الآمرة المسيطرة المهددة ، وبين الذات المحمدية البسيطة المنفذة . . . ولا بأس أن نتصفح هذه الآيات :

﴿ ليس عليك هداهم ﴾

﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾

﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين ﴾ [القلم :] .

﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنَّ عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ [الزمر : ٩٦] .

﴿ يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ .

﴿ يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال . . . ﴾ .

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ .

أما تبصر في هذه الآيات السالفة الذكر ، الدور الوحيد للرسول والهدف من رسالته والقدرة التي يملكها . . . أنه الرسول الذي يمثل دور النذير البشير . . .

وهاكم نمط آخر في القرآن . . . يدلنا على اختلاف

الصفتين . . . عناية ووعود لهذا الإنسان ؛ وهل يعقل أن يعد الإنسان نفسه في كتاب مسطر بيمينه كما يقول الأفاكون . . .

ففي قوله تعالى : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ، فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، إنا كفيناك المستهزئين ﴾ [الحجر : ١٤٦] .

﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ [غافر : ٥٢] .

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . . . ﴾ .

﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . . . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ [الأنفال : ٧] .

وأعد النظر في هذه الآيات التأديبية التوجيهية التي يتلقاها الرسول من السماء : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ .

وفي قوله تعالى : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم

بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ [الكهف : ٢٨] .

وفي قوله تعالى : ﴿ وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴾ [الأنعام : ٣٥] .

وفي قوله : ﴿ ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ .

وفي النهاية بعد أن كشفنا الفرق البيِّن بين الذات الإلهية والشخصية المحمدية ، لا بأس أن نوجه النداء إلى كل منصف أن يبحث في هذا الكتاب ولو مرة واحدة ، لأن أكثر بل جميع المناهضين له ، أقول وبصراحة ، لم يقرؤوه ولا مرة واحدة ، فكيف تنكر ما تجهل فقد قيل : (إن الإنسان عدو ما يجهل) .

فالمتابع لقراءة القرآن يرى صفة الرسول المتلقي للوحي ، الداعي لما أمر به : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ أنما إلهكم إله واحد . . . ﴾ .

ولو كان أمراً فيه غموض ، لأبصرنا الاندماج بين الشخصية المحمدية والذات الإلهية وما قال بهذا أحد من العالمين إلا

مستشرق معرض ، أو أفاك مزور ، أو مأفون الفكر ، مشبوه الهدف ولذا قال كفار قريش إبان البعثة وهم المتضلعون باللغة ومجازاتها وبلاغتها ويعرفون إلى أيهم ترجع الضمائر ويفهمون لغة التخاطب . . . على الرغم من ذلك لم يستطيعوا أن يقولوا أبداً أن هذا الكلام من عند محمد . . . بل قالوا إنما يعلمه بشر . . . لكي يتجنبوا الحقيقة والإقرار بالنبوة وبالتالي سيتطلب منهم الخضوع لهذا الرسول وفي هذا ضياع لسيادتهم المزعومة ، وهدر لمكانتهم بين قومهم ، فالباحث المنصف يجد إذن الفرق الشاسع ، والبون الواضح بين الرسول المرشد ، المبلغ ، المنذر ، المبشر ، وبين الذات الإلهية ذات القدرة الفعالة المحققة لكل وعد وعدت به . . .

وقيل إن هذه التقريعات خرجت من ذاته ، بعد ندم ووخز ضمير ، ونستطيع الرد على من قال ذلك : فلو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرة عنه معبرة عن ندمه ووخز ضميره حين بدا له خلاف ما فرط من أمره ، لما كان ليعلنها عن نفسه بهذا التهويل والتشنيع والتقريع ؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه ، واستبقاء لحرمة آرائه ، بل إن هذا القرآن لو كان يفيض من وجدانه ، لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئاً من ذلك كما يفعل الكثير من الشعراء والأدباء . . . وخاصة وهو بحاجة إلى إظهار نفسه بمظهر الكامل المتكامل الذي لا يعتريه النقص ، بل عليه أن يظهر نفسه أنه مصدر لكل كمال ، وموئل العصمة بلا منازع ولكنه لو كان كاتماً ،

لكتم أمثال هذه الآيات فإنه الوحي فلا يستطيع كتمانه والوحي هو القائل :

﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات من بعد ما جاءهم الهدى أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . . . ﴾ [التكوير : ٢٤] .

وعلينا أن نتدبر هذه الآية في نهاية بحثنا :

﴿ والضحى والليل إذا سجى ، ما ودَّعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ .

وفي هذه الآية عبرة لأولي الأبصار :

﴿ ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ﴾ .